منهجُ محمد حسين فضل الله
في تفسيرِهِ «من وحيِ القُرآن»

محمد الجنيد

الملخَّص

تفسير "من وحي القرآنِ" من التفاسيرِ التي كان لها وزنُها في هذا العلم، وهو امتداد لجهودِ العلماءِ في محاولةِ فهمِ القرآن الكريم، وقد ألَّفه محمَّد حسين فضل الله الشيعيُّ الاثنا عشريُّ، ما يورثُ فضولًا عند المطَّلعِ على كتبِ التفسيرِ عن كيفيَّةِ عمل المؤلِّف في التفسير، وما هو الخطُّ العامُّ الذي سارَ عليه، والتفاسيرُ بشكلٍ عامٍّ كلٌّ منها له منهجٌ خاصٌّ يسيرُ عليه، وكتب التفسير المتقدِّمة لكلٍّ منها علم يطغى عليها، أمَّا مع المتأخِّرينَ فنحنُ اليوم مع قواعدَ ضخمةٍ للبياناتِ تتيحُ لأيِّ كاتبٍ الاطِّلاعَ على ما شاء، وعليه كانت جهودُ المفسِّرينَ في حاضرنا تنحصرُ في جزءٍ منها في الجمعِ والمُقارَنةِ، فكان لا بُدَّ من أن ينظرَ الباحثونَ في النهجِ الذي يتناولُهُ متأخِّروا المؤلِّفين في التفسير، وقد حاولَ البحث تحويل المعلوماتِ التطبيقيَّةِ التي يسيرُ عليها المؤلِّفُ إلى معلوماتٍ نظريَّةٍ تعكسُ اتِّجاهَ المؤلِّفِ في تناوُلِ القضايا، وركَّز على البابِ العَقَدِيِّ الذي لا بُدَّ أن يثيرَ فضولَنا إذا ما عرفْنا أنَّ المؤلِّفَ شيعيُّ الاعتقادِ.

الكلمات المفتاحيَّة: التَّفسير، الشيعة، المنهج، الوحي، القرآن.

Muhammed Hüseyin Fadlullah'ın Min Vahyil Kur'an Tefsirindeki Yöntemi

Muhammad ALJUNAYD

Özet

Min Vahyil Kur'an tefsiri, bu ilimde önemli bir yere sahip olup, Kur'an-ı Kerim'i anlama yolundaki âlimlerin çabalarının bir devamıdır. Bu tefsir, İmamiye Şiîsi olan Muhammed Hüseyin Fadlullah tarafından kaleme alınmıştır. Bu durum, tefsir araştırmacısında, müellifin Kur'an'ı nasıl yorumladığı ve hangi yöntemi benimsediği konusunda merak uyandırmaktadır.

Genel olarak her tefsir, müellifinin izlediği özel bir metoda sahiptir. Klasik tefsirlerde bu durum belirgindir; ancak günümüzde geniş veri kaynakları sayesinde yazarlar farklı bilgilere kolayca ulaşabilmektedir. Bu nedenle çağdaş müfessirlerin çabalarının bir kısmı derleme ve karşılaştırma üzerinde yoğunlaşmaktadır.

Bu çalışmada, müellifin uygulamalı olarak takip ettiği yöntemi teorik bir çerçevede değerlendirmek amaçlanmış ve özellikle müellifin Şiî inancına mensup olması sebebiyle tefsirdeki akaid konularına yaklaşımı üzerinde durulmuştur.

Anahtar kelimeler: Tefsir, Şiîlik, yöntem, vahiy, Kur'an.

Muhammad Hussein Fadlallah's Method in the Exegesis "Min Wahy Al-Qur'an"

Muhammad ALJUNAYD

Abstract

Min Wahy Al-Qur'an is an exegetical work that holds a significant place in this field and represents a continuation of scholars' efforts to understand the Qur'an. It was authored by Muhammad Hussein Fadlallah, a Twelver Shiite scholar. This naturally raises curiosity among readers of Qur'anic exegesis about how the author interprets the Qur'an and what general methodology he follows.

In general, each exegetical work follows a specific method, and in classical works, this influence of the author's expertise is quite evident. However, in the modern era, with large databases available, writers can easily access a wide range of sources, and thus contemporary exegetical efforts often focus on compilation and comparison.

This study aims to analyze the theoretical approach derived from the practical methods used by the author and focuses particularly on the doctrinal dimension, which is of special interest considering the author's Shiite background.

Keywords: Exegesis, Shiism, Methodology, Revelation, Qur'an.

المقدِّمة

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِ المرسلين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين. أمَّا بعد،

فقد حاولَ المفسِّرونَ على اختلافِ مَعارِفهم فهمَ كتابِ اللَّهِ تعالى، ومحاولةَ النفوذِ إلى المعاني المُرادةِ من كتابٍ تجاوزَ أُفقَ العربِ اللغويَّة، وهذهِ المحاولاتُ بدأتْ مع الصحابةِ الكرام، واستمرَّتْ لتَشمَلَ ما بعد ذلك من العصورِ إلى يومنا هذا.

وقد تعدَّدتْ أنواعُ التفاسيرِ من شتَّى الفِرَقِ، فقد كتبَ أهلُ السنَّةِ وغيرُهم أنواعًا شتَّى في التفسيرِ، وقد وقفَ منها أهلُ السنَّةِ والجماعةِ موقِفَ الحيادِ وحاولُوا أن يستفيدوا منها قَدْرَ الإمكان، ولم يردُّوها لمجرَّدِ أنَّ المؤلِّف يخالفُ أهلَ السنَّةِ والجماعة، كما فعلوا ذلك على سبيلِ المثالِ مع الزمخشريِّ في تفسيره الكشَّاف، والذي حشاهُ بالاعتزال، والذي لا يُنكَرُ فضلُ هذا الكتابِ في عرضِ البلاغةِ في كتابِ اللَّهِ تعالى وبراعتهِ مؤلِّفهِ فيها.

ومن هذه المحاولاتِ ما فعلهُ محمَّد حسين فضل الله في تفسيرهِ «من وحي القرآن»، والذي حاولَ في تفسيرهِ أن يتخلَّى عن التصوُّراتِ المُسبقةِ ليَستنطِقَ الآياتِ بما تريد هي لا بما يريدُ هو، كما يذكرُ ذلك في مقدِّمةِ تفسيره.

والمؤلِّف من طائفةٍ تُخالفُ أهل السنَّةِ والجماعةِ في الاعتقادِ، فهو شيعيُّ الاعتقادِ اثنا عشريٌّ، ممَّا يزيدنا فضولًا لنحاولَ أن نتعرَّفَ على هذه المحاولةِ في التفسيرِ، لننظرَ كيف اتَّجهَ المؤلِّفُ في تفسيره، وهل التزمَ ما ألزمَ نفسَهُ به، أم طغى عليه تشيُّعهُ ومالَ إليه.

ثمَّ ممَّا يزيدُنا فضولًا أنَّ المؤلِّفَ وإنْ كان شيعيًّا اثني عشريًّا؛ إلَّا أنَّ علاقَتَهُ مع أبناءِ طائفتهِ لم تكنْ سليمةً، فقد كانت هناكَ محاولاتٌ عديدةٌ للشيعةِ أنفسهِم للردِّ على المؤلِّفِ، وعدمِ اعتبارهِ شيعيًّا أصلًا.

وبما أنَّ المؤلِّفَ حولَهُ بعضُ اللَّغطِ كما ذكرنا، حاولَ هذا البحثُ أن يعمدَ إلى

النظرِ في منهجِ هذا التفسيرِ مُركِّزًا على الجانبِ العقديّ أكثرَ من غيرِهِ؛ لأنَّ هذا من أكثرِ ما يُمكنُ أن يهمَّنا في تفسيرٍ يؤلِّفهُ شيعيٌّ.

مشكلةُ البحث

تفاسيرُ العلماءِ السابقين سارتْ على مناهجَ مختلفةٍ في التفسير، لكنْ غلبَ على كثيرٍ منها البسْطُ في التفسير، ولم تكنْ كلُّها كذلك، لكن لا شكَّ أنَّ التفاسيرَ كان يحصلُ فيها ما يمكنُ أن نعدَّهُ طغيانًا لعلمٍ ما على آخرَ كان المؤلِّفُ قد اشتهرَ به، كما هو الحالُ مع الرازيّ في علمِ الكلام، والآلوسيّ في اللغةِ والإشاراتِ، والقرطبيّ في الفقهِ، وغيرِهم من المفسّرين.

فوظيفةُ مَن يحاولُ أن يدرسَ تفسيرًا من التفاسيرِ القديمةِ في الغالبِ تنحصرُ مع النظرِ فيما كان المؤلِّفُ ينتهجهُ في تناوُلِ العلمِ الذي اشتهرَ به في التفسير.

أمَّا اليومَ فقد اختلفَ الأمرُ وصارت المعلوماتُ أكثرَ انتشارًا وأسهلَ تناولًا من السابق، فكان تسابقُ المؤلِّفينَ في علمِ التفسيرِ إلى محاولةِ الجمعِ بين علومٍ شتَّى في التفسيرِ، فكانت المهمَّةُ تنحصرُ في الغالبِ في كيفيَّةِ تَعامُلِ المؤلِّفِ مع العلومِ المتعدِّدةِ التي يحاولُ أن يتناوَلَها في التفسير، وهذا البحثُ يحاولُ أن ينظرَ في هذا الموضوعِ لينظرَ في الطريقةِ التي حاوَلَ بها المؤلِّفُ تناوُلَ هذه العلومِ المتفرّقةِ في التفسيرِ، هذا أمرٌ، والأمرُ الآخَرُ -الذي يعدُّ مشكلةَ هذا البحثِ والتي هي أخصُّ من السابق- الطريقةُ التي تناوَلَ بها المؤلِّفُ المسائلَ التي اختلفَ فيها أهلُ السنَّةِ مع الشيعة.

منهجُ البحث

سيعتمدُ البحثُ في تناوُلِ هذا التفسيرِ على منهجينِ: المنهجُ التحليليُّ، والمنهجُ الاستقرائيُّ.

أمَّا المنهجُ التحليليُّ فسيكونُ في تحويلِ ما يفعلُهُ المؤلِّفُ من طريقةٍ عمليَّةٍ في التفسيرِ إلى أمورٍ نظريَّةٍ يَستنبِطُها الباحثُ من الخطِّ العامِّ الذي يسيرُ عليهِ المؤلِّفُ في كتابه.

وأمَّا المنهجُ الاستقرائيُّ فسيكونُ في التعامُلِ مع الحالاتِ التي نَستنبِطُها من طريقةِ المؤلِّفِ في التفسيرِ للنظرِ فيما إذا كان المؤلِّفُ يلتزمُ دائمًا ما يفعلُهُ في موضعٍ ما من التفسير، أم أنَّهُ لا يلتزمُ منهجًا واحدًا وربَّما يُخالِفُهُ لاعتباراتٍ عنده.

أهمِّيةُ البحث

تأتي أهمِّيةُ البحثِ هذا من أهمِّيَّةِ التفسيرِ الذي سيُنظَرُ فيه، فهو تفسيرٌ لا يمكنُ أن ينكرَ أحدٌ أنَّ المؤلِّفَ أظهرَ في مواضعَ عديدةٍ منه براعةً في هذا العلم، خصوصًا إذا عرفنا أنَّ المؤلِّفَ له جانبٌ قويٌّ في بابِ اللغة، وهي من أهمِّ ما يلزمُ المُتعرِّضَ لعلمِ التفسير.

كذلكَ يُبرِزُ جانبٌ آخر أهمِّيَّةَ هذا البحثِ، فهو تفسيرٌ ألَّفهُ شيعيٌّ اثنا عشريٌّ، ما يزيدنا فُضولًا لنعرِفَ ماذا فعلَ هذا المؤلِّفُ في كتابه، خصوصًا أنَّه مع كونهِ شيعيًّا ليس مَرضِيًّا عنه عند كلِّ أبناءِ طائفته.

أهدافُ البحث

يهدفُ البحثُ لبيانِ المنهجِ الذي اتَّبعهُ محمَّد حسين فضل الله في تفسيرهِ «من وحي القرآن»، لِيَنْظُرَ في كيفيَّةِ تعامُلهِ مع الآياتِ وكيفيَّةِ نظرهِ فيها، وكيفيَّةِ عرضِ تفسيرهِ للآية، وكيفيَّةِ تعامُلهِ مع الآثارِ التي وردتْ في التفسير، هذا عمومًا في كلِّ كتابِ اللهِ تعالى، وعلى الأخصِّ الآياتِ التي اختلفَ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ في تفسيرِها مع الشيعة.

المبحثُ الأوَّل: التعريفُ بالمؤلِّف

هو محمَّد حسين فضل الله من مواليد عام ١٩٣٥م، من علماءِ الشيعةِ الاثني عشريَّة، ولِد في مدينةِ النجفِ العراقيَّة، وتعودُ نسبتُهُ إلى الإمامِ الحسنِ رضي اللهُ عنه، وقد كان والدهُ آيةُ اللهِ السيِّد عبد الرؤوف فضل الله من علماءِ الشيعةِ في جبلِ عامِل في جنوبِ لبنان.

عاش طفولتَهُ وترعرعَ في مدينةِ النَّجَف، وقد كان بدأَ دراستَهُ في الكتاتيب، حيث تعلَّمَ فيها قراءَةَ القُرآنِ والقراءةَ والكتابة، ثمَّ بعد ذلك انتقلَ إلى المدرسةِ التي أنشأتْها جمعيَّةُ "مُنتدَى النَّشْر"، وقد رأتْ فيه إدارةُ المدرسةِ أنَّهُ بإمكانهِ أن يتجاوَزَ الصفَّ الأوَّلَ والثاني إلى الثالث لِمَا رأتْ عندهُ من معلوماتٍ تُؤَهِّلُهُ لذلك، وقد استطاعَ أن ينجحَ إلى الصفِّ الدراسيِّ الرابع، ثمَّ خرجَ ليكمِلَ دراستَهُ في علومِ الدينِ في الحوزاتِ الشيعيَّةِ وهو في التاسعةِ من عُمُرِهِ على يدِ أوَّلِ أستاذٍ له وهو والده، فدَرَسَ عليه كُلًّا من الفقهِ وأصولهِ والمنطقِ والبلاغةِ والنحو.

وقد تابعَ دراستَهُ في المَرتبةِ الأخيرةِ من الدراسةِ في الحوزاتِ الشيعيَّةِ والتي يسمُّونَها "البحثَ الخارجَ" على يدِ كبارِ عُلماءِ الشيعة، كأبي القاسمِ الخوئيّ ومحسن الحكيم، ومحمود الشاهرودي وحسين الحلِّيّ والملا صدرا القفقازيّ ومحمَّد سعيد فضل الله.

وقد وسَّعَ نشاطَهُ ليتجاوزَ الحوزاتِ الشيعيَّةَ ويدرسَ عند بعضِ الشيوخِ في دروسِهم التي كانوا يعقدونَها في أيَّام العُطَل، فدرسَ عند عبَّاس الرميثيّ والمحقِّقِ البجنورديّ، وعقد مباحثاتٍ منفردةً في بعض الكتبِ الفقهيَّةِ والأصوليَّةِ التي لا تُدرَّسُ ضمنَ البرنامجِ الحوزويّ، وكذلك كان يحضرُ المذاكراتِ العلميَّةَ التي كانت تُعقَدُ في السهراتِ في أيَّامِ العُطَل، وهكذا استمرَّتْ دراستُهُ في الحوزاتِ الشيعيَّةِ نحو اثنتينِ وعشرينَ سنة.

ومن معالمِ شخصيَّتِهِ أنَّهُ لم يكنْ منغلقًا على ما عندَ الشيعةِ فقط، فقد كان على اطِّلاعٍ على المجلَّاتِ والصُّحفِ العربيَّةِ والمؤلَّفاتِ الأدبيَّة، فقد كان يقرأُ لكلٍّ من

حسن الزيَّات وطه حسين وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وخليل مطران، وبشارة الخوري وصلاح لبكي، وغيرهم.

وقد شاركَ في إصدارِ مجلَّةِ الأدبِ بالتعاونِ مع محمَّد مهدي الحكيم، وهو في الحاديةَ عشرةَ من عمرهِ، وقد بدأَ كذلك بنظمِ القصائدِ ليصدرَ قصيدتَهُ الأولى وهو ابن عشرِ سنين، وقد أصدرَ أربعةَ دواوينَ من الشعر.

شاركَ في العملِ الصحافيِّ في مدينةِ النجفِ وذلكَ حين أُصدِرتْ مجلَّةُ الأضواءِ في النجف سنة ١٣٨٠م، وقد كانَ أحدَ المُشرفينَ عليها.

عادَ إلى لبنان سنة ١٩٦٦م، فساهمَ في العملِ الدينيِّ والتبليغيِّ والجهاديِّ والسياسيِّ والعلميِّ، فكان له عددٌ من الخُطَبِ والمحاضراتِ والدروس، وألَّفَ عددًا من الكتبِ الفقهيَّةِ والدينيَّةِ والفكريَّةِ تزيدُ على مئةِ مؤلَّفٍ منها تفسيرُهُ الذي سنتناوَلُهُ في هذا البحثِ وهو تفسيرٌ سمَّاه «من وحي القرآن»، وغيرُ ذلك من الكتبِ، مثل: «خطوات على طريق الإسلام»، و«الإسلام ومنطق القوَّة»، و«مفاهيم إسلاميَّة عامَّة»، و«دنيا المرأة»، و«دنيا الشَّباب»، و«دنيا الطِّفل»، و«موسوعة النّدوة «.

وقد أسَّسَ حوزةً في لبنانَ سمَّاها "المعهدُ الشرعيُّ الإسلاميُّ"، وتولَّى التدريسَ في البحثِ الخارجِ في حوزتهِ لأكثرَ من خمسٍ وعشرينَ سنة، وتخرَّجَ على يديه عددٌ من الطلَّابِ من لبنانَ وسوريا.

توفِّي في الرابع من تموز من سنة ٢٠١٠م، بعد صراع مع المرض.[١]

أمَّا تفسيرُهُ «من وحي القرآن»، وهو موضوعُ هذا البحثِ، فهو في طبعتهِ الأولى لم يكنْ تفسيرًا قد كتبهُ المؤلِّفُ بنفسه، وإنَّما هو عبارةٌ عن محاضراتٍ في التفسير، حُرِّرتْ ونُشِرتْ تباعًا في أربعةٍ وعشرينَ جُزءًا، وقد صدرَ أوَّلُ جزءٍ منها عام ١٩٧٩م وقد طبعتهُ دارُ الزهراءِ في بيروت، أمَّا الطبعةُ الثانيةُ، فهي طبعةٌ أضافَ فيها المؤلِّفُ مئاتِ الصفحاتِ وقد طبِعتْ عام ١٩٩٨م، وقد طبعتْهَا دارُ الملاك في بيروت، مع

١ انظر ترجمته على الشبكة العنكبوتية في موقع بيّنات. بتاريخ ٢٠٢٣/٠٦/٠١. https://:ly.bit/٤Eg٨QQ٣.

مقدّمةٍ للمؤلِّف.

أمَّا الطبعةُ الثالثةُ من الكتابِ، فقد أضافَ لها المؤلِّفُ إضافاتٍ جديدةً غيرَ ما في الطبعةِ الأولى والثانية، وانتهى منها المؤلِّفُ سنة ٢٠٠٢م، ثمَّ قام المؤلِّفُ بإضافاتٍ جديدةٍ إلى الكتابِ قبل وفاته، وهذه الطبعة عبارةٌ عن عشرينَ مُجلَّدًا.

المبحثُ الثاني: منهجُ المؤلِّفِ في التفسير

المطلبُ الأوَّل: المنهجُ العامُّ والمصادرُ التي اعتمدَ عليها

عند النظرةِ الأولى في تفسيرِ «من وَحْي القُرآن» يمكنُ أنْ يلفتنا أمرانِ رئيسانِ اهتمَّ بهما المُؤلِّف.

الأمرُ الأوَّلُ: اهتمامهُ بأسبابِ النُّزولِ، ومُلاحظتُهُ الفرقَ بين أسبابَ النُّزولِ بالمعنى الدَّقيقِ لهذا الاصطلاح، وما يُمكِنُ أن يدخلَ ضمنَ الآية، وهما الأمرانِ اللَّذانِ لم يُفرِّقْ علماءُ التفسيرِ الأوائلِ بينهما، معتمدينَ على عِلْمِ القارئِ في هذا الباب، كذلك ملاحظتُهُ في الآياتِ التي نزلتْ لسببٍ خاصٍّ عمومَها، وهي القاعدةُ المعتمدَةُ عند أهلِ السنَّةِ والجماعةِ بلفظ: "العبرةُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بِخُصوصِ السَّبب"،[١] وهكذا انطلقَ المؤلِّفُ مُعتَبِرًا أنَّ الآيةَ "لا تتجمَّدُ في النقطةِ التي انطلقتْ منها ونزلتْ فيها؛ لأنَّ أسبابَ النزولِ لا تُمثِّلُ إلَّا المنطلقَ الذي تحرَّكت الفكرةُ من خلالهِ بعيدًا عن كلِّ ما يُحدِّدها ويُقيِّدها في دائرته."[٢]

الأمرُ الآخَرُ الذي يمكنُ أن نَعتبِرَهُ لافتًا للنظرِ في النظرةِ الأولى لهذا التفسيرِ اهتمامُ المؤلِّفِ بالجانبِ البلاغيِّ واللغويِّ، وهذه نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لدراستِهِ وتعمُّقهِ في أبوابِ اللُّغةِ والأدبِ العربيِّ، ويمكنُ أن يظهرَ هذا واضحًا في الصفحاتِ الأولى من التفسيرِ في تفسيرهِ لسورةِ الفاتحةِ، وتَفصيلِهِ في ألفاظِ البسملةِ، وكلامهِ عن الآيةِ الأولى من الفاتحة، فهو يذكرُ الكلمةَ ويَشْرَعُ في تفصيلها مُنطَلِقًا من اللغةِ، فيقول مثلًا: "الرَّبُّ: مأخوذٌ من رَبَبَ: وهو المالكُ المُصلحُ والمربِّي، ومنه: الربيبةُ.

١ انظر: علوم القرآن لنور الدين عتر ٥٢.

٢ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١/ ٢٩.

وهو لا يطلقُ على غيرهِ تعالى إلَّا مضافًا إلى شيءٍ، فيقال: رَبُّ السفينةِ، رَبُّ الدار"، وهكذا..[1]

هذه عبارةٌ عن مقدِّمة يمكن أن تكون مجرَّد تصفُّحٍ لهذا التفسيرِ من خلالِ النظرِ فيه عشوائيًّا والتقليبِ في صَفحاتِه.

في تفسيرِ الآياتِ نجدُ المؤلِّفَ يبدأُ أوَّلًا بمعلوماتٍ عامَّةٍ عن السورةِ وعددِ آياتها وهل هي مكِّيَّة أم مدنيَّة، ويبحثُ كذلك في سببِ تسميتِها ويعرضُ مواضيعَها بشكلٍ مُختَصَر، ثمَّ حينما يبدأُ بالتفسيرِ يبدأُ أوَّلًا بمعاني المُفرداتِ واشتقاقِها وأسبابِ النزولِ للآياتِ التي لها سببُ نزول، ثمَّ يكملُ ليُفسِّرَ الآياتِ ويفردُ عنوانًا لكلِّ آيةٍ أو جزءٍ منها يمكنُ أنْ ينفردَ بعنوان، ويُلحظُ في تفسيرهِ بشكلٍ واضحٍ محاولَتَهُ إسقاطَ الآياتِ بطريقةٍ مُعاصِرةٍ على العلومِ الحديثةِ، ومحاولَةُ النظرِ في العلاقةِ بين الآيةِ ومسائلِ العلومِ الكونيَّةِ أو الإنسانيَّة، لكن دون تعسُّفٍ وتكلُّف، ممَّا يمكنُ أن يكونَ من مميِّزاتِ هذا التفسير.

أمَّا تصنيفُ التفسيرِ فيمكنُ أن نعدَّهُ من بابِ التفسيرِ بالرأيِ لا التفسيرِ بالمأثور، وإن كانَ في مواضعَ منه يحاولُ أن يُقارِنَ بين الآيات، وبين النصوصِ الحديثيَّةِ التي لها علاقةٌ بالآية، إلَّا أنَّ المنهجَ الطاغي على التفسيرِ يمكنُ أن نقولَ إنَّهُ التفسيرُ بالرأي، على سبيلِ المثالِ يمكنُ ملاحظةُ هذا المنحى في كلامهِ عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فقد استعرضَ المؤلِّفُ في كلامهِ عن الآيةِ الآياتِ الأخرى التي تتكلَّمُ عن عصيانِ إبليس ورفضِهِ السُّجود، وفصَّلَ في هذه النقطةِ تحتَ عنوان "تمرُّد إبليس"،[2] فتفسيرُ «من وحي القرآن» يمكنُ أن نعدَّهُ في التصنيفِ الحديثِ تفسيرًا تحليليًّا موسَّعًا.

وقد اعتمدَ في تفسيرهِ على عددٍ من المصادرِ نذكرُ منها: «مجمع البيان» للطبرسي، و«الميزان» للطبطبائي، و«الكشاف» للزمخشري، و«البيان في تفسير القرآن» للخوئي،

١ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١/ ٥٠.

٢ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢١٢/١.

و«بحار الأنوار» للمجلسي، و«مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني، و«في ظلال القرآن» لسيد قطب، و«الدر المنثور» للسيوطي، و«وسائل الشيعة» للحر العاملي، و«أسباب النزول» للواحدي، و«الكاشف» لمحمد جواد مغنيه، و«جامع البيان» للطبري، و«الكافي» للكليني، و«التفسير الكبير» للرازي، و«معاني القرآن» للزجَّاج، و«الأمثل في تفسير كتاب اللَّهِ المنزل» للشيرازي.[١]

المطلبُ الثاني: المنهجُ اللغويُّ

أمَّا الناحيةُ اللغويَّةُ فقد استعملَها المؤلِّفُ في مواضِعَ كثيرةٍ، حيثُ يظهرُ أنَّ المؤلِّفَ مُتأثِّرٌ بعلومِ اللُّغةِ ومُتشبِّعٌ بها، فهو عند تفسيرِهِ لأيِّ آيةٍ نجدهُ يتوسَّعُ في بابِ اللُّغة، فيبدأُ كلامَهُ في تفسيرِ الآيةِ بما عَنْوَنَ له بـ "شرحِ المُفردات" فيبيِّنُ الجذرَ اللغويَّ للكلماتِ الغريبةِ الواردةِ في الآيةِ أوَّلًا ومصدرَ اشتقاقِها، ويبيِّنُ معنى الكلمةِ في سياقِ الآية، ولا يتوقَّفُ عند هذا؛ بل نجدهُ يمكنُ أن يتوسَّعَ في معنى الكلمةِ إلى لغاتٍ أُخرى ويبني عليهِ معنى الآيةِ من حيث السِّياقُ اللغويُّ والسياقُ التاريخيُّ للغةِ الأُخْرى التي بيَّنَ أنَّ الكلمةَ مشتقَّةٌ منها، ولنأخذْ مثالًا على هذا كلامَهُ عن معنى كلمةِ "الصَّابئين" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، حيث ذكرَ أوَّلًا معناها في اللغةِ العربيَّةِ، وبيَّنَ طرُقَ النُّطقِ بها من جوازِ تركِ الهمزةِ وغيرِ ذلك، ثمَّ قال: "ولكنْ ذُكِرَ بأنَّ الكلمةَ ترجعُ إلى الأصلِ الآراميِّ، والذي يعني: اصطبغَ، تعمَّدَ، غطَّ أو غطسَ في الماء. وما يؤيِّدُ الرأيَ الثاني [يقصدُ القولَ الذي ينقلُهُ الآن] أنَّ التعميدَ أو الغطاسَ من أهمِّ شعائرِ هذهِ الفِرقَة. كما قد يؤيَّدُ بوجودِ آثارٍ قديمةٍ تدعمُ الأصلَ الآراميَّ للكلمة."[٢]

هذا من ناحيةِ اللُّغةِ والمَعاني، أمَّا من ناحيةِ البلاغةِ فهو يهتمُّ كذلكَ بها ولا يتناولُ الآيةَ بمجرَّدِ كونِها بليغةً؛ بل ينفذُ من البلاغةِ إلى العلومِ العصريَّة، ويحاولُ

١ انظر: منهج الشيخ محمد حسين فضل الله رحمه الله تعالى في تفسيره "من وحي القرآن" لحسينية عبد اللَّه حويج ١١.

٢ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١/ ٢٩٩.

بها أن يُظهِرَ مدى بلاغةِ الآيةِ في الصورةِ التي وردتْ بها، فمثلًا حينما تكلَّم عن قولهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥] تكلَّمَ عن معنى النورِ ومهمَّتهُ، وعن المعنى الحديثِ للنورِ الذي يقعُ تحتَ تَجرُبَتِنا الماديَّةِ، وذكر عدَّةَ معانٍ أخرى للكلمة، ثمَّ من ذلك تكلَّمَ عن المعنى الذي تَختَزِنُهُ كلمةُ النور، وما يريدُ اللَّهُ تعالى بها أن يوجِّهَنا إلى ارتباطِ وُجودِ الكونِ في السمواتِ والأرضِ بوجوده، وانتهى إلى أنَّ المُرادَ بالنورِ في أجواءِ الآيةِ الهدايةُ التكوينيَّةُ التي تخضَعُ لها السمواتُ والأرضُ، مُستَدلًّا على ذلك بختامِ الآيةِ قولِه تعالى: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، منتهيًا إلى أنَّ وصفَ اللهِ تعالى بالنورِ معناهُ "أنَّ اللهَ هو الحقيقةُ الوحيدةُ التي تمدُّ الكونَ بالهدايةِ، وتُسَهِّلُ له حركتَهُ في الاتجاهِ السليم، وتُنظِّمُ له أمورَه، وتحفظُ توازُنَه .. وبهذا يكونُ اللَّهُ هو محرِّكُ الكونِ إلى مواقعِ هِدايتِهِ، تمامًا كما هو النورُ الذي يضيءُ للأشياءِ مواقعَ السلامةِ في الحياة، فهو نورُ السماواتِ والأرضِ الذي تهتدي به في وجودِها المتحرِّكِ نحو غاياتِها."[1]

المطلب الثالثُ: المنهجُ العَقَديُّ

وهو جانبٌ مهمٌّ لهذا البحثِ خصوصًا أنَّ المؤلِّفَ ينتمي لفرقةٍ تُخالِفُ أهلَ السنَّةِ والجماعةِ في الاعتقاد، فلا بُدَّ من النظرِ في تأثيرِ ذلكَ على تفسيرِهِ، وحتَّى نستطيعَ أنْ نجلِّي هذا لا بُدَّ من النَّظرِ في المسائلِ التي اختلفَ فيها أهلُ السنَّةِ والجماعةِ مع الشيعة، ولننظرْ لذلك أوَّلًا الآياتِ التي نزلتْ في براءةِ السيِّدةِ عائشة رضي الله عنها.

والآيةُ التي تتحدَّثُ عن هذا هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النور: ١١- ١٨]، نرى أنَّ المؤلِّفَ حينما تكلَّمَ عن هذهِ الآيةِ أوردَ الرواياتِ

١ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١٣/١٩٤-١٩٥.

التي اعتمدَها أهلُ السنَّةِ في هذا الباب،[١] والتي تروي اتِّهامَ السيِّدةِ الطاهرةِ النقيَّةِ العفيفةِ زوجِ رسولِ اللَّه ﷺ عائشةَ رضي الله عنها، لكنَّ المؤلِّفَ عَمَدَ إلى التقليلِ من شأنِ الرِّواياتِ التي اعتمدَها أهلُ السنَّةِ والجماعة، هل عَمدَ إلى ذلك بِنَقْدِ الأسانيدِ التي رُويتْ بها تلكَ النصوص؟ لا، إنَّما بحجَّةِ أنَّ تلكَ النصوصَ لا تليقُ برسولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا فيها من إساءةٍ إلى الشخصيَّةِ النبويَّةِ؛ لأنَّه اعتبرَها تعاملًا بطريقةٍ سلبيَّةٍ مع عائشةَ لمدَّةٍ طويلة، ثمَّ اعتبرَ أنَّ الروايةَ تجعلُ رسولَ اللَّهِ ﷺ قد عاشَ مرارةً نفسيَّةً إزاءَ هذهِ القضيَّةِ كما لو أنَّها كانت حقيقة، وغيرَ ذلك من التُّهمِ التي وجَّهها المؤلِّفُ للنصِّ، دون أن يذكرَ علَّةً واحدةً أو إشكالًا واحدًا في إسنادهِ على الأقلِّ عند الشيعة،[٢] وقد قامَ المؤلِّفُ بتوجيهِ الآيةِ لتكونَ عامَّةً في قصَّةٍ مثيرةٍ للاهتمامِ حصلتْ على عهدِ رسولِ اللَّه ﷺ دون توجيهها إلى شخصيَّةٍ معيَّنة،[٣] ولا يمكننا هنا سَوْقُ ما يُظهِرُ قوَّةَ الأسانيدِ وضعفَها عند أهلِ السنَّةِ أو حتَّى عند الشيعة؛ لأنَّ المؤلِّفَ أغفلَ هذا الأمرَ بشكلٍ تامٍّ.[٤]

وقد أوقعَ المؤلِّفُ نفسَهُ في مأزقٍ لا يليقُ بمَن يتعرَّضُ للتفسير، وذلك في محاولتِهِ تسفيهَ هذهِ الروايةِ بما ذكرناه، مُحتجًّا بأنَّنا "قد لا نحتاجُ إلى أمثالِ هذه الرواياتِ لوعيِ النصِّ القرآنيِّ؛ لأنَّ القرآنَ لم يتحدَّثْ عن الجانبِ الشخصيِّ في مسألةِ الإفكِ، حتَّى في علاقتهِ بالبيتِ النبويِّ، ما يدلُّ على أنَّ ذلك دخيلٌ على التحليلِ القرآنيِّ للمسألة،"[٥] ناسيًا أو مُتناسيًا قاعدةً مهمَّةً في هذا الباب، وهي أنَّ سببَ النزولِ قطعيُّ الدُّخول.[٦]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ١٨٩؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/ ١٩٧.

٢ انظر: جامع البيان للطبري ١٣/ ١٣٠- ١٣١.

٣ انظر: جامع البيان للطبري ١٣/ ١٣٣.

٤ وقد نقلَ ابنُ الجوزي إجماعَ المفسِّرين على أنَّ الآيةَ نزلتْ في قصَّةِ السيدةِ عائشة رضي الله عنها، انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٣/ ٢٨٢.

٥ زاد المسير لابن الجوزي ١٣/ ١٣٣.

٦ انظر: الإتقان للسيوطي ١/ ١٠٧، وفيه قال: "اللفظُ قد يكونُ عامًّا ويقومُ الدليلُ على تخصُّصهِ، فإذا عُرِف السبب قُصِر التخصيصُ على ما عدا صورته فإنَّ دخولَ صورةِ السببِ قطعيٌّ وإخراجها بالاجتهادِ ممنوع كما حكى الإجماعَ عليه القاضي أبو بكرٍ في التقريبِ ولا التفاتَ إلى من شذَّ فجوَّز ذلك". وقد ذكر في كتابُ «مباحث في علوم القرآن» ما يلي: "فإنَّ قبولَ توبةِ القاذفِ وإن كان مخصِّصًا لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ

وليس ما ذكرناهُ سابقًا توجيهًا لأيِّ تهمةٍ للمؤلِّفِ على أنَّه يسيءُ للسيِّدةِ عائشة كما يفعلُهُ فئةٌ من الشيعة، فهذا ممَّا لم يفعلْهُ في تفسيرِ الآيةِ سوى أنَّه أخرجَ سببَ النُّزولِ عن اعتبارهِ في تفسيرِ الآية، ولعلَّنا نحسبُ للمؤلِّفِ أنَّه أَورَدَ روايةً أُخرى تتضمَّنُ قذفَ السيِّدةِ عائشة لِماريا القبطيَّة، وقد ردَّ هذه الروايةَ بنفسِ الطريقةِ السَّابقة،[1] ممَّا يدلُّ على أنَّهُ لم يقصد التعرُّضَ لشخصيَّةِ السيِّدةِ عائشة في تفسيرهِ للآيةِ بهذهِ الطريقة.[2]

ولا يخفى على القارئ أنَّ ما فعلَهُ رسولُ اللَّه ﷺ فيه من البراعةِ الفائقةِ في توجيهِ الأمورِ وتربيةِ الناسِ والتغلُّبِ على مشاكِلِهم، فقد كان له عليه الصلاةُ والسلامُ أنْ يأمرَ بقتلِ عبد اللَّهِ بن أبيّ بن سلولٍ على الفورِ حينما وقعَ في السيِّدةِ عائشة رضي الله عنها، ولكنَّه عليه الصلاةُ والسلامُ تركَ الحكمةَ لتأخُذَ منحاها من الموضوعِ، فقال لابنهِ الذي جاء يعرضُ على رسولِ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ أبيه: ((بل نترفَّقُ بهِ، ونُحسِنُ صُحبَتَه ما بَقِيَ مَعَنَا))،[3] وقد علَّلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ذلك لعُمرَ رضي الله عنه بقوله: ((فكيْفَ يا عُمَر إذا تحدَّثَ الناسُ أنَّ محمدًا يقتلُ أصحابَه؟))،[4] وكان من نتيجةِ هذه الحكمةِ في التعامُلِ مع القضيَّةِ أن انحسَرَ الناسُ عن عبد اللَّهِ بن أبيّ بن سلول،[5] إلى آخِرِ ما في ذلك من الحِكَمِ التي يتضمَّنُها فعلُ رسول اللَّه ﷺ ممَّا يضيقُ المجالُ عن ذِكرِه.

وقد فعلَ المؤلِّفُ الشيءَ نفسَهُ عند تفسيرِهِ لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧]،[6] بل لعلَّهُ فعلَ أشنعَ مِمَّا سبقَ بعدمِ إشارتِهِ أصلًا إلى الروايةِ التي تقولُ

ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ [النور: ٢٣]، لا يتناولُ بالتخصيصِ مَن قذفَ عائشة، أو قذفَ سائرَ أزواجِ النبيِّ ﷺ فإنَّ هذا لا توبةَ له؛ لأنَّ دخولَ صورةِ السببِ في اللفظِ العامِّ قطعيٌّ"؛ مباحث في علوم القرآن لمنَّاع القطَّان ٨٠، وانظر: مناهل العرفان للزرقاني ١/ ١٣٥.

١ انظر: زاد المسير لابن الجوزي ١٣/ ١٣١.

٢ وقد صرح المؤلِّف بموقفهِ من السيِّدةِ عائشة ومَنعَ سبَّها وسبَّ سائرِ الصحابةِ في فيديو منشورٍ على يوتيوب بتاريخ ٢٠١٢/١٢/٣١. https://youtu.be/Yr2dUntN-mY?si=Cfr7SXk6C4L-ecNz

٣ السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣.

٤ السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١.

٥ انظر: فقه السيرة النبويَّة للبوطي ٢٠٩.

٦ انظر: من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٢١٣.

إنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في أبي بكرٍ رضي اللَّهُ عنه.[١]

وفي دراستنا للمنهجِ العقديّ يمكنُ لنا أن نتناولَ أيضًا قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، فقد ذكر المؤلِّفُ تفسيرَ الآيةِ بوجهٍ حياديٍّ ولم يتعرَّضْ لولايةِ عليٍّ رضي اللَّهُ عنه كما حاول بعضُ الشيعةِ أن يَستَنبِطَ ذلك من هذه الآية،[٢] ولكنَّ المؤلِّف تعرَّضَ للمسألةِ في آخرِ تفسيرِهِ لهذه الآية، ولم يفصِّلْ وإنَّما أشارَ إشارةً إلى موقِفِهِ الذي يمكنُ أن نقولَ إنَّهُ تبنَّاهُ بقوله: "وقد أُثيرَ حولَ ذلكَ الكثيرُ من الجَدَلِ، بيْنَ مَن ناقشَ في سندِ الرّواياتِ التي دلَّتْ على نزولِها في قصَّةِ تَصَدُّقِ عليٍّ عليه السَّلام بالخاتَمِ أثناءَ الصَّلاة، كابنِ تيميةَ الذي اعتبرَها من الموضُوعاتِ مُدَّعيًا على ذلك الإجماع، وبينَ من أقرَّ صِحَّتَها كأكثرِ المفسِّرينَ والمتكلِّمينَ والرُّواة."[٣]

كما نَقَل عن تفسيرِ الميزانِ ما أورَدَهُ بعضُهم على تفسيرِ الآيةِ بأنَّ المُرادَ عليٌّ رضي اللَّهُ عنه، وما يحصلُ بناءً على ذلكَ من إشكال، ونَقَلَ ردَّ صاحبِ الميزانِ لهذا الإيراد،[٤] وليس المُرادُ مناقشتَهُ في هذا الأمرِ، إنَّما المُرادُ بيانُ أنَّ المؤلِّفَ مالَ إلى ما يقولُهُ الشيعةُ في نظريَّةِ الإمامَة، ولكنْ دونَ أن يُطيلَ النِّقاشَ في الموضوعِ هنا، وقد رَدَّ الإمامُ الرازيُّ على هذهِ الشُّبهةِ بالتفصيلِ في تفسيره،[٥] فليراجَعْ.

ولكنَّ المؤلِّفَ لم يتوقَّفْ عند هذا المَوقِفِ الضَّبابيّ الذي كان اتَّبعهُ في تفسيرِ الآيةِ السابقة، وركِبَ المؤلِّفُ كلَّ صعبٍ وذلولٍ مُحاولًا أن يجعلَ قولَهُ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] قد نزلَ في عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ إتمامَ الدينِ كان بولايةِ عليٍّ رضي الله عنه، مع أنَّ

١ نقل ابنُ كثيرٍ إجماعَ المفسِّرين على أنَّ هذه الآية نزلتْ في أبي بكرٍ رضي اللَّه عنه، وأنَّه أولى الأمَّةِ بعمومها، انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٢٢؛ والمحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ٤٩٢. ولعلَّ موقفَ المؤلِّف هنا في إغفالِهِ ذلك خيرٌ ممَّا فعله بعضُ الشيعةِ من جعلهِ الآية قد نزلتْ في حقِّ عليٍّ كرَّمَ اللَّهُ وجهه بما لا ينهضُ شبهة، انظر: الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ٢٠/ ٣٥١.

٢ انظر: الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ٦/ ٥ وما بعدها.

٣ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٥/ ٢١٢.

٤ انظر: المصدر نفسه ٥/ ٢١٢- ٢١٣.

٥ انظر: التفسير الكبير للرازي ١٢/ ٣٨٣.

الآيةَ السَّابقةَ كانت يمكنُ أن تكونَ أدلَّ على مَقصُودهِ، لكنَّه تعمَّدَ أن يُوردَ هذه المسألةَ عند هذه الآية، وكانت حجَّتُهُ الرواياتُ الكثيرةُ التي جاءت في المسألة، تلك الرواياتُ نفسها التي أَغْفَلها حينما تكلَّمَ عن الآيةِ التي تحدَّثتْ عن حادثةِ الإفك، والتي رأى فيها أنْ تكونَ الآيةُ عامَّةً في حادثةٍ مُثيرةٍ حصلتْ بين المسلمين، ولم يرَ هذا الأمرَ نفسَهُ في تفسيرِ هذهِ الآية.

والحقيقةُ أنَّ هذا الأمرَ يدلُّ على أمرٍ أبعدَ من مسألةِ ولايةِ عليٍّ رضي اللَّهُ عنه، وهي مسألةُ الرواياتِ ومنهج المؤلِّفِ في تتبُّعها، فالمؤلِّفُ يتغافلُ أسانيدَ أيِّ روايةٍ بشكلٍ تامٍّ ما دامتْ تلكَ الروايةُ تتوافقُ مع القواعدِ العقليَّةِ أو الاجتماعيَّةِ التي يتصوَّرُها، ويردُّ أيَّ روايةٍ ما دامت عنده لا تتوافقُ مع قاعدةٍ عقليَّةٍ أو اجتماعيَّةٍ يتصوَّرها.

هذا من ناحيةِ المسائلِ التي اختلفَ فيها أهلُ السنَّةِ والجماعةِ مع الشيعة، والتي أرادَ الباحثُ إيرادَها لِمَا هو معلومٌ من توجُّهِ المؤلِّف، ويمكنُ أن نوردَ أمرًا آخَرَ هنا يتعلَّقُ بالجانبِ العَقَديّ في التفسير، وهو تأويلُ المُتشابَهِ، ونكتفي هنا بنقلِ موقفِ المؤلِّفِ الذي ذكرهُ في مقدِّمةِ الطبعةِ الأولى لتفسيرِه، قال:

"إنَّ الآياتِ قد تتحرَّكُ في نطاقِ مضمونٍ فكريٍّ معيَّنٍ ولكنَّها توحي لنا بشكلٍ آخر، باعتبارِ علاقةِ المعنى الذي تَتضمَّنهُ الآيةُ بالمعنى الآخرِ من حيث طبيعةُ النتائجِ العمليَّةِ، ومن حيث وحدةُ المسار، وهذا هو ما عبَّرتْ عنه بعضُ الأحاديثِ المأثورةِ عن أئمَّةِ أهل البيتِ عليهم السَّلام: بالتأويل، الذي لا يُقصَدُ فيه إعطاءُ اللفظِ مدلولًا ثانيًا غيرَ المدلولِ الذي يظهرُ فيه بحسبِ وضعِهِ اللغويّ؛ بل يُقصَدُ استيحاءُ المعنى الحقيقيّ ومن أجلِ الإيحاءِ بمعنًى آخر، وذلك كما وردَ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]".[١]

يُظِهرُ من هذا النصُّ أنَّ المؤلِّفَ يعتمدُ التأويلَ في الآياتِ المُتشابِهةِ في تفسيرِه، وقد طبَّقَ هذا بشكلٍ عمليٍّ في تفسيرهِ في مواضِعِ المُتشابِه، ما عدا الأحرفَ المقطَّعةَ

١ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١/ ٢٩.

التي جاءتْ في أوائلِ السُّوَرِ والتي ذهبَ إلى أنَّ اللَّهَ تعالى أعلمُ بِمُرادها.[١]

المبحثُ الثالث: نموذجٌ من الكتاب

يمكنُ أن نُورِدَ هنا تفسيرَ سورةِ الكوثرِ، لنستطيعَ أن نأخُذَ تفسيرَ سورةٍ كاملةٍ ليمكنَ تصوُّرُ منهجَ المؤلِّفِ في تفسيره.

فقد بدأ المؤلِّفُ في تفسيرها بعنوان: "في أجواءِ السُّورة"، وهو ما يقصدُ به المؤلِّفُ هنا عادةً أسبابَ النزول، وما وَرَدَ من أحاديثَ تذكرُ الآيةَ أو تتعلَّقُ بها، وما تعطيهِ السُّورةُ من معنًى عامٍّ، وما تقصدُ السُّورةُ إليه، فقال مثلًا:

"وهكذا كانت هذه السُّورةُ القصيرةُ إطلالةً روحيَّةً على النبيّ محمَّد ﷺ من أجلِ أن تفتحَ قلبَهُ على الخيرِ الكثيرِ القادِمِ من اللَّه، وعلى الامتدادِ الواسعِ المُنفَتحِ على رسالةِ اللَّه، لتقولَ له: إنَّ الامتدادَ الذي يُمثِّلهُ وجودُه، ليس هو الامتدادُ المحدودُ الذي يتمثَّلُ في الذريَّةِ الباقيةِ فقط؛ بل هو الامتدادُ في وعيِ الرسالةِ وحركيَّتِها وفاعليَّتِها ورَحابتِها في كلِّ مواقعِ الحياةِ والإنسان، فلا يحزنْ ولا يبتئسْ بما كانوا يقولونَ أو يفعلون."[٢]

ثمَّ بدأَ بشرحِ معاني المفرداتِ فشَرَحَها على الوجهِ التالي: "﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: على وزنِ فَوْعَل، وهو الشيءُ الذي من شأنهِ الكثرةُ، ﴿شَانِئَكَ﴾: مبغضك، ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾: المقطوع."[٣]

ثمَّ بدأ بتفسيرِ السُّورة، بدأ بتفسيرِ الآيةِ الأولى، فابتدأَ تفسيرَها بعنوان "الخيرُ الكثيرُ عطيَّةُ اللَّهِ للنبيّ"، فقال: "الظاهرُ أنَّ المُرادَ بالكوثَرِ الخيرَ الكثيرَ، وهو المعنَى الذي يشملُ أكثرَ المُفرداتِ المتفرِّقةِ التي ذكروها كمعانٍ للكلمةِ ممَّا لا شاهِدَ للمفسِّرينَ عليها"،[٤] وقد عاد المؤلِّفُ لِمَا أشارَ له الباحثُ في الصفحاتِ الماضِيَةِ

١ انظر: من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١/ ٩٦.
٢ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٣٨٣.
٣ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٣٨٥.
٤ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٣٨٥.

من أنَّ المؤلِّفَ لا يَعتَمِدُ منهجًا معيَّنًا في نقدِ الرواياتِ سوى الاعتمادِ على الرأي فيها والتحليلِ، دون النَّظرِ إلى السَّنَد، فقد ردَّ الرواياتِ التي وردتْ في أنَّ الكوثرَ نهرٌ وَعَدَهُ اللَّهُ تعالى لرسولِ اللَّهِ ﷺ دونَ أيِّ نقدٍ لأسانيدِ هذه الرواية.

وقد بيَّنَ المؤلِّفُ أكثرَ من وجهٍ في ردِّهِ؛ لكونِ الكوثرِ معناهُ النهرُ الذي وَعَدَهُ اللَّهُ لرسولهِﷺ، ثمَّ عادَ ليُناقِضَ نفسَهُ في نفسِ الصفحةِ التي ردَّ فيها الرواياتِ التي تقولُ إنَّ الكوثرَ نهرٌ أعطاهُ اللَّهُ لرسوله، ليفسِّرَ قولَه تعالى: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ بأنَّ المُرادَ بها رفعُ اليدينِ في تكبيرِ الصَّلاةِ إلى النَّحْر، اعتمادًا على رواياتٍ عن أهلِ البيت، وروايةٍ عن السيوطيِّ في ذلك،[1] تلك الروايةُ التي ردَّها ابنُ كثيرٍ رحمه اللَّه تعالى في تفسيرِه،[2] ثمَّ نقلَ المؤلِّفُ القولَ بأنَّ معناها نَحْرُ البُدُنِ بصيغةِ التمريض،[3] وهذا يُظهرُ مدى تناقضِ المؤلِّفِ في النَّظرِ للروايات، ففي مسألةِ الكوثرِ ردَّ الرواياتِ لمجرَّدِ أنْ يُوافِقَ اللغة، وهنا لم يكنْ عندهُ إشكالٌ في أن يتركَ ما هو أَوْلَى باللغةِ للرواياتِ التي ذَكَرَها ولروايةٍ حاولَ أن يتصيَّدَها من الإمامِ السيوطيِّ رحمه اللَّه المعروفِ عنه أنَّه يحاولُ أن يجمعَ رواياتٍ متعدِّدةً في تفسيرهِ للآياتِ بغضِّ النظرِ عن مدى صِحَّتِها متنًا أو إسنادًا، هكذا كان المؤلِّفُ ينتقي انتقاءً دون قاعدةٍ منتظمةٍ في مثلِ هذا الباب.

ثمَّ أكملَ المؤلِّفُ في تفسيرهِ لهذهِ السُّورةِ بعنوانٍ ينصبُهُ عادةً في تفسيرهِ لأيِّ سورةٍ، وهذا العنوانُ هو "مِن وحيِ الصَّلاة"، يذكرُ فيه ما تَعنيهِ الأوامِرُ والنواهي التي في الآيةِ، وما المقصودُ منها إشاريًّا.[4]

وختمَ تفسيرَهُ لآخرِ السُّورةِ بعنوان "مُبغِضُكَ هو الأَبْتَرُ"،[5] وانتقلَ بعد ذلك إلى تفسيرِ سورةٍ أخرى.

١ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٣٨٧.
٢ انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٩٨.
٣ انظر: من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٣٨٧.
٤ انظر: من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٣٨٧.
٥ انظر: من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٢٠/ ٣٨٨.

الخَاتِمة

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيّدِ المرسلين محمَّدٍ رسول اللهِ، وعلى آلهِ وصحبهِ ومن وَالاه، أمَّا بعدُ، فقد قامَ البحثُ بالنظرِ في تفسيرِ «مِن وحي القرآنِ» لتبيُّنِ منهجِ هذا البحث، ويظهرُ أنَّ المؤلِّفَ في تفسيرهِ قد تميَّزَ بعدّةِ أشياء، أوَّلُها تفعيلُ المنهجِ اللغويّ والبلاغيّ في تفسيرِه، وقد كانَ هذا في غالبِ تفسيرِه، بحيثُ ينظرُ المؤلِّفُ في الكلماتِ ويحاوِلُ أن يرجعَ بها إلى أصلِ اشتقاقِها ويفسِّرُها انطلاقًا من هذا، كذلك في النظرِ في الآياتِ التي رأينا فيها الجانبَ البلاغيَّ، حيث لم يتوقَّف المؤلِّفُ عند المعاني الأصيلةِ في اللغة؛ بل تجاوزَ ذلكَ إلى المعاني الحديثة، وحاولَ أن يُطابِقَ بينها وبين المعاني اللغويَّة، ويقبلَ منها ما يُمكنُ أن يُقبَلَ ويَردَّ منها ما يجبُ ردُّه.[١]

ومن ناحيةٍ أخرى نجدُ المؤلِّفَ في مواقفَ يمكنُ أن نقولَ إنَّها كثيرة -لأنَّه لمْ يلتزمْ ذلكَ في تفسيرهِ كاملًا- حاولَ أن لا يُسَلِّمَ بكلِّ ما قيلِ إنَّهُ سببُ نزول، وهذا صحيحٌ لا غُبارَ عليه، فعديدٌ ممَّا يظنُّهُ القارئُ لكتبِ التفسيرِ سببًا للنزولِ ليس كذلك، وإنَّما هو ممَّا يمكنُ أن تتضمَّنَهُ الآية، لكنَّ المؤلِّفَ تجاوزَ ذلك ليردَّ عددًا من أسبابِ النزولِ الصحيحةِ التي لا إشكالَ فيها.

من مميِّزاتِ التفسيرِ كذلكَ الجانبُ العمليُّ التحليليُّ الذي انتهجَهُ المؤلِّفُ، بحيث يقسِّمُ تفسيرَ السُّورةِ إلى أبوابٍ متسلسلةٍ كلٌّ منها له عنوان، وهو منهجٌ قديمٌ سبقهُ إليه القرطبيُّ وغيرُه، لكنَّ المؤلِّفَ حاولَ أن يتعاملَ مع الأمر بطريقةٍ تجديديَّةٍ مختلفة.

هذا من حيث المميِّزات، وممَّا يُعابُ على المؤلِّفِ أنَّهُ في تفسيرهِ عمومًا لم ينتهِجْ منهجًا لقبولِ الأخبارِ ورَدِّها، فهو لا ينظرُ إلى الأخبارِ من ناحيةِ إسنادِها، ويكتفي بالمضمُون، فإن وافَقَهُ أخذَ بهِ وإلَّا ردَّه، ولا يخفى خطرُ هذا المنهجِ في النظرِ للأخبار.

١ انظر مثلًا: من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١٣/ ١٩٤ وما بعدها.

ومن ناحية أخرى فقد ظهر أنَّ المؤلِّف يميلُ في بعضِ الأحيانِ إلى رواياتِ أهلِ البيتِ فيَعتَمِدُها في تفسيرِ بعضِ الآياتِ بغضِّ النَّظرِ عن اللغةِ والمنهجِ الذي حاولَ أن يَسيرَ عليه في النظرِ للأخبارِ، بحيث ينظرُ إلى مضمونِها فقط، ويحكمُ عليها بناءً عليه؛ بل قد ذهبَ المؤلِّفُ إلى أخطرِ من هذا، فقد قالَ أثناءَ ردِّهِ لحادثةِ الإفكِ، وكون الآياتِ في سورةِ النُّورِ نزلت فيها:

"وقد تكونُ مثلُ هذه الرواياتِ جزءًا من تراثِ الوضْعِ في الحديثِ الذي كان يكثرُ فيه الكذِبُ على النبيِّ محمَّدٍ ﷺ وعلى أهلِ البيتِ عليهم السَّلام، ممَّا أتقنَ فيه الوضَّاعونَ طريقةَ ترتيبِ الأحاديثِ بحيثُ تصبحُ موضِعًا للثِّقةِ، باعتبارِ وثاقةِ رُواتِها، فقد كان الحديثُ يُدَسُّ في كتُبِهم دون أن ينتبهوا إليه، ولذلك، فإنَّ وثاقةَ الأحاديثِ المنقولة عن أئمَّةِ أهل البيتِ عليهم السَّلام، تتأتَّى من عرضِها على الكتابِ والسنَّةِ القطعيَّةِ والموثوقة، فما وافَقَهُما كان مقبولًا، وما خالَفَهُما كان مَردودًا، الأمرُ الذي نستوحي منه ضرورةَ دراسةِ المضمونِ الداخليِّ للنصِّ، وعدمَ الاكتفاءِ بدراسةِ السَّند؛ لأنَّ القضيَّةَ تتعلَّقُ بعمقِ المفاهيمِ الإسلاميَّةِ في وعيِ المسلمينَ لها."[1]

فالمؤلِّفُ وإن كان قد ذكرَ عدمَ الاكتفاءِ بالسَّندِ في حديثه، لكنَّهُ كما يظهرُ في تفسيرِهِ يحاولُ أن يلغيَ بشكلٍ عمليٍّ مسألةَ النظرِ للسَّندِ أصلًا.

وصلَّى اللَّهُ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ وسلَّمَ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين.

١ من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ١٣/ ١٣٣.

المصادر والمراجع

- **الإتقان في علوم القرآن**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.
- **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ت سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م.
- **التفسير الكبير**، فخر الدين، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.
- **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ت عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- **السيد فضل الله (معتدل) يحرم سب أم المؤمنين عائشة**، فيديو على يوتيوب، بتاريخ ٢٠١٢/١٢/٣١. https://www.youtube.com/watch?v=Yr2dUntN-mY.
- **السيرة النبويَّة**، أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، ت مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥م.
- **علوم القرآن الكريم**، نور الدين عتر، مطبعة الصباح، دمشق، ط١، ١٩٩٣م.
- **فقه السيرة النبويَّة**، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، بيروت- دمشق، ط٤١، ٢٠١٧م.
- **مباحث في علوم القرآن**، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط٣، ٢٠٠٠م.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية، ت عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- **من وحي القرآن**، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ط٣، ٢٠١٨م.

- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، وشركاه، القاهرة، ط٣، د.ت
- **منهج الشيخ محمد حسين فضل الله رحمه الله تعالى في تفسيره من وحي القرآن**، حسينية عبد اللَّه حويج، بحث بحوليَّة كليَّة أصول الدين والدعوة بالمنوفيَّة، مصر، القاهرة، العدد الرابع والثلاثون، ٢٠١٤-٢٠١٥.
- موقع بيّنات على الشابكة: https://www.bayynat.org.lb.
- **الميزان في تفسير القرآن**، محمد حسين الطباطبائي، ت حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.